

التربية الإسلامية والبعد الاستراتيجي لقضايا التنمية.

الدكتور خالد الصمدي
(رئيس شعبة الدراسات الإسلامية
بالمدرسة العليا للأساتذة بتطوان)

انسجاماً مع الرؤية المستقبلية للتربية والتعليم وربطها بالتنمية، وتفنيد زعم كل من ادعى أن التربية الإسلامية عبء زائد، وميدان يأخذ من الطاقات ما يمكن أن يستغل في ميادين أقرب إلى سوق الشغل. أضع هذه الورقة أمام كل ذي حس وطني يشكل طاقة فاعلة في ميدان البرمجة والتأليف، أو له مشاركة في تقويم البرامج وإعادة هيكلتها، كما أضعها أمام الرأي العام، تصحيحاً لمجموعة من المفاهيم الموروثة عن الاستلاب الثقافي الذي عانى به ونعانيه.

وسأذيل هذه الورقة باقتراحات عملية نلحظ جميعاً من خلالها أن بطالة الخريجين من الدراسات الإسلامية ما كانت لتكون لو حسنت النيات.
وفي هذا الصدد، وتأكيداً لربط التنمية بأبعاد التربية الإسلامية سأركز على النقاط الآتية.

أ - تحديد مصطلحي لمفهومي "التربية الإسلامية" و "التنمية" لأن الاختلاف في مفهوم المصطلح يقود إلى الاختلاف الحتمي في النتائج.

ب - تحديد الإطار العام لفلسفة التربية والتنمية من وجهة نظر إسلامية مرتبطة بالجانب العقائدي، محاولاً تأصيل ذلك من القرآن الكريم.

ج - ميادين التنمية المعاصرة ودور التربية الإسلامية فيها من بيئة وتكنولوجيا وتسيير المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ثم البحث العلمي والإعلامي وغيرها، مذيلاً عرضي بنتائج قيمية تشكل مقترحات عملية.

مفهوم التربية الإسلامية وبعدها الفلسفي

يقول الكاتب الإسلامي محمد قطب: لقد أحسست بطبيعة الحال أن في القرآن توجيهات تربوية كثيرة، وأن لهذه التوجيهات أثراً في النفس، وأن الإنسان حين يتدبرها ويتأثر بها يصبح له سلوك معين وشعور معين أقرب إلى الصلاح والتقوى، ويصبح الإنسان أكثر شفافية وأكثر إنسانية. لقد خلق الله في البشر مجموعة من الأحاسيس، وهذه

الأساليب والطاقت محكومة بهوى النفس لأنه خلق الإنسان لهدف (وما خلقت الجن والإانس إلا ليعبدون)¹ فكان لا بد أن توجه هذه الطاقات إلى الاتسجام التام مع الغرض من الخلق، وفي هذا الصدد ترتبط التربية الإسلامية مع نمط متكامل من التوجيهات التي ترسم الطريق للإنسان وتتخلص في:

1 – الإيمان أو ما يمكننا أن نسميه تربويا الارتباط بالرقابة الذاتية النابعة من

الجانب العقائدي الذي يربط الأرض بالسماء، وعمل الإنسان بفلسفة الجزاء "الثواب والعقاب"، الشيء الذي تعجز عنه القوانين الوضعية لارتباطها بالرقابة الخارجية وتوفر أدلة الإثبات.

2 – الربط بين التربية ومبدأ الاستخلاف (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا

الصالحات ليستخلفنهم في الأرض)² (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة)³ وهذا الربط يشكل جوهر المنظور الحضاري في التصور الإسلامي.

– التوازن والتكامل بين الجوانب العقلية والمادية والنفسية والروحية (وابتغ فيما

أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين)⁴

وبهذا تكون التربية الإسلامية هي توجيه طاقات الإنسان الإبداعية إلى تحقيق

العبودية لله تعالى، والتخلص من عبودية المكونات المادية التي تعتبر في فلسفة التربية الإسلامية وسيلة لا هدفاً، وفي هذا الصدد يقول الشيخ محمد الغزالي: "ليس الدين أحكاماً جافة وأوامر ميتة، إنه قلب يتحرك بالشوق والرغبة يحمل صاحبه على المسارعة إلى طاعة الله وهو يقول: (وعجلت إليك ربي لترضى)"⁴.

ويقول الدكتور يوسف القرضاوي: "ولما ختم الله كتبه بالقرآن وختم رسالته بالإسلام

وختم النبيين بمحمد (ص)، أكد هذه الحقيقة، وأعلن في كتابه الخالد أن الغاية من خلق

المكلفين أن يعرفوا الله ربهم وأن يعبدوه، فهذا سر خلق الجنس الناطق المفكر المرید في

هذا العالم"⁵.

مفهوم التنمية في بعدها الحضاري

¹ - الذاريات 56.

² - النور 35

³ - البقرة. 30.

⁴ - الجانب العاطفي من الإسلام، محمد الغزالي، ص 6، دار الدعوة، ط 1 - 1990.

⁵ - العبادة في الإسلام، الدكتور يوسف القرضاوي، ص 8، مؤسسة الرسالة ط 19 - 1988.

من الخطأ أن نعتبر التنمية مجرد عملية اقتصادية، فنحصرها في مناصب الشغل مع إغفال مؤشرات التقدم والتخلف المرتبطين بالقيم التي تحكم المسار الثقافي والاجتماعي والسياسي.

وفي هذا الصدد يقول الأستاذ عادل حسين (مفكر واقتصادي ورئيس تحرير جريدة الشعب لسان حزب العمل الاشتراكي في مصر) في مقال له تحت عنوان: "التراث ومستقبل التنمية" "غني عن البيان أن حديثنا عن التطورات المقبلة خلال عقدين كاملين، هو حديث عن تنمية مركبة تشمل المجتمع كله، وتصيب مكوناته كلها (سياسية وثقافية واجتماعية إلى جانب المكون الاقتصادي) بشكل ينبغي أن يكون متكاملًا ومنسقًا.. ويلاحظ في السنوات الأخيرة أن المتحدثين عن التنمية العربية أصبحوا جميعًا يتناولونها باعتبارها عملية أوسع من أن تكون مجرد عملية اقتصادية، ولذا يتابعون باعتناء وتحفظ مؤشرات التقدم في مختلف القطاعات، وليس في القطاع الاقتصادي وحده"¹.

ومن هنا نقول: إن مهمة التربية الإسلامية لا تنفك عن المنظور الشامل للتنمية، بحيث لا تنحصر في إعادة إنتاج أساتذة المادة بقدر ما توجه وتربي كل الطاقات الفاعلة في ساحة التنمية، سواء في ذلك المهندسون والإعلاميون وتقنيو الفلاحة وملاحو الفضاء والبحر وغيرهم. فهي مكون لا ينفصل عن أي مجال، ولعل الذين يرون أن مادة التربية الإسلامية لا ترتبط باستراتيجية التنمية يعانون من فهم المدلول الشامل لها، فيرون أن فائضا من الأساتذة المتخصصين يقتضي وقف آلة الإنتاج التي يتحكم فيها السوق بناء على قانون العرض والطلب.

دور العقيدة في توجيه حركة التنمية:

"لقد تركزت الأخلاق الاقتصادية في الغرب على أسس عقلانية نفعية صرفة، فكان الإخلاص في العمل والوفاء بالعهد وعدم الغش وغيرها من مبادئ حسن التصرف. والإدارة تأخذ بعين الاعتبار عدم فقدان الزبون، وفي كتاب ثروة الأمم يعلن منظر الليبرالية آدم سميث: "إننا لا نعتبر قوتنا منة من القصاب أو الخباز بل إن عملهما يعود بفائدة عليهما، إننا لا نخاطب إنسانيتيها بل أنانيتيها فلا نكلمهما عن حاجياتنا بل عن مصالحهما"².

يدل هذا التحليل على الارتباط الصرف بالمصالح الآنية، وتختلف الوسيلة باختلاف نسبة ما يتحقق من هذه المصالح المادية الظرفية. ولعل هذا ما يفسر طغيان المصالح

¹ - مجلة الحوار، السنة الأولى، ص 21 وما بعدها.

² - نفسه ص 22.

المركزية للغرب حيث ترتبط التصرفات بفلسفة تربوية تعتمد المذهب الفردي، ويتجلى ذلك بوضوح حينما يرتبط الأمر بحقوق الإنسان والحوار الحضاري والرؤية الجيوسياسية للعالم المقبل، فلا تكاد تحضر القيم الحضارية لكافة الشعوب في أي مشروع تغييري، ولا تتحدد المضامين المصطلحية للثوابت الحضارية: "حقوق الإنسان - العدالة الاجتماعية - السلم - الحوار ... " إلا وفق ما تتسجه مصلحة الغرب ولو على حساب المفهوم الحضاري للإنسانية. وهذا لا ينفك عن الفلسفة التربوية التي ذكرنا.

ولهذا يهبط المشروع الحضاري الغربي من محاور بالفكر إلى ملوح بالعصا كلما هددت مصالحه.

وإذا رجعنا بذاكرتنا إلى ما سبق وأن قررناه من أن فلسفة التربية الإسلامية قائمة على الارتباط بالجانب العقائدي الذي يخلق الرقابة الذاتية، وبمبدأ الاستخلاف الذي يأخذ بعين الاعتبار فلسفة الجزاء (ثواب - عقاب) كموجه أساسي، وبمبدأ التوازن انسجاماً مع مكونات الإنسان، تبين لنا أن أخلاقيات التنمية في المشروع الإسلامي مرتبطة بما هو أبعد من تحقيق المصلحة الذاتية الفردية، إذ تعتبر العقيدة ورقابة الله تعالى ومبدأ التقوى بوصلات موجهة لأي فعل اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي، فيقاس النفع والضرر بمدى الاستجابة لأمر الله وحقوق المكلفين (كما يقول علم الأصول) والتعارض بينهما قائم على درء المفاسد وجلب المصالح العامة، هو الموجه المتحكم.

وبهذا تكون العقيدة عنصراً متحركاً وليست إيماناً جامداً لا يتجاوز حدود القناعات الخاصة الداخلية غير المؤثرة في السلوك العملي، لذلك قال الرسول (ص): "الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل"¹.

وبقراءة بسيطة لبعض نماذج الدعوة في القرآن الكريم، نرى كيف وظفت العقيدة كفلسفة تربوية متكاملة في إصلاح ما فسد من أحوال اقتصادية واجتماعية وسياسية ومؤصلة لتنمية بديلة، ومن أمثلة ذلك:

نبي الله شعيب وإصلاح الفساد الاقتصادي

قال تعالى: (وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) حيث ركز على العقيدة في النفوس أولاً لأنها صمام الأمان وأساس الإصلاح والبناء. ثم بعد ذلك قال: (ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط، ويا

¹ - انظر موقع العمل من الإيمان فيما ذكره القاضي عياض، ونقله ابن حجر في الجزء الأول من الفتح.

قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ)².

لكن اختلال الموازين عند بعض القوم، أو ما يمكن أن نصلح عليه في واقعنا الحالي "التفكير العلماني" أو "الفصل بين الدين والدولة" استحكمت في العقول فلم يستسيغوا هذا الربط بين مفاهيم العقيدة والفعل الاقتصادي (قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد)².
ولكن شعيبا وجه اهتمامهم إلى الجانب العقائدي لضمان استمرار الفكرة من أن يكون أتباع كثر، فالعبرة بالكيف لا بالكم في المنظور التربوي الإسلامي، والعبرة بترسيخ المفاهيم لا بكترة الرهط (قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربي بما تعملون محيط)³.

نبي الله لوط وإصلاح الفساد الاجتماعي

قال تعالى: (كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون)⁴ والملاحظ أن إصلاح الفساد الاجتماعي كسلوك عملي لم يكن ليتم دون إرساء فلسفة تربوية تنطلق من الجانب العقائدي (ألا تتقون) (فاتقوا الله وأطيعون) (إن أجري إلا على رب العالمين) قال ابن كثير: "فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده، لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات والأفاعيل والمستقبحات، فتمادوا في ضلالهم وطغيانهم، واستمروا في فجورهم وكفرانهم، فأحل الله بهم من البأس الذي لا يرد ما لم يكن في خلدكم وحسبانهم، وجعلهم مثلة في العالمين"⁵. والملاحظ في عالم اليوم أن القيم التربوية اللبرالية لا تستسيغ وضع قيود على حرية التصرف إلى حد أدى إلى تهتك العلاقات الاجتماعية، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تحد حملات التوعية بأخطار الأمراض المنتقلة جنسيا، ومؤسسات حماية الأسرة والطفل، والمظاهرات ضد العنف

² - سورة هود الآية 86.

² - سورة هود الآية 87.

³ - سورة هود الآية 92.

⁴ - سورة الشعراء الآية 166.

⁵ - قصص الأنبياء، ابن كثير ص 192.

والاغتصاب، من حدة هذا الدمار مادامت الفلسفة التربوية قائمة بالأساس على "دعه يعمل دعه يمر"، وقد أضحت مظاهر الخلل الاجتماعي القائمة عائقا حقيقيا أمام التنمية على المدى البعيد، فيكفي أن تستنطق الميزانيات المخصصة لمؤسسات إعادة التأهيل ومحاربة المخدرات والعيادات النفسية لنقف أمام ملايين الدولارات التي تحتاج إليها المؤسسات التنموية التي تهدف إلى البناء.

موسى عليه السلام وإصلاح الفساد السياسي

لا ينفك الإصلاح السياسي والتنمية في هذا المجال عن التصور العقائدي في المنظور الإسلامي، ومما يجسد هذه الرؤية على مستوى القصص القرآني قوله تعالى واصفا الفساد السياسي القائم «إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين»¹ وإصلاح هذا الوضع كان لا بد من ترسيخ المفهوم العقائدي أولا قال تعالى مخبرا عن فرعون (قال فمن ربكما يا موسى، قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) (17)) وفي آية أخرى قال: «قال فرعون وما رب العالمين قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين. قال لمن حوله ألا تستمعون، قال ربكم ورب آبائكم الأولين. قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون، قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون»².

والمعلوم أن تصحيح المفهوم العقائدي لبني إسرائيل كان كافيا ليخوض بهم البحر، وليجادل بهم سحرة فرعون، وليخلصوا للفكرة أيما إخلاص إلى أن قالوا لفرعون: (إن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا، إنا آمننا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى)³ وذلك بعد أن قال لهم فرعون مهديدا: «فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى»⁴.

وهكذا أصبح الوضع السياسي القائم مرفوضا بعد وضوح البناء العقائدي السليم، فكانت التربية الإسلامية التي تركز مفاهيم الألوهية والربوبية لله تعالى تعلم العالم والناس أن الحكم المطلق هو الله تعالى، وأن من ولاه الله شأن الناس وفقا لمبادئ الشورى والبيعة

1 - سورة القصص الآية 3.

2 - سورة طه، الأيتان 49-50.

3 - سورة الشعراء، الأيتان 23-24.

4 - سورة طه، الأيتان 72-73.

لا يعدو أن يكون مكلفا بحماية القانون الإلهي وتطبيقه، وهذا كله كفيل بأن يجتث جذور الدكتاتورية والاستغلال من المجتمع الإنساني.

عبر النماذج التي سردناها يظهر بجلاء أن التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مرتبطة ارتباطا وثيقا بفلسفة التربية السائدة، وحتى نقل القارئ من هذا المستوى التنظيري إلى المستوى التطبيقي، نقوم بجولة عبر ميادين التنمية المعاصرة لرصد واقعها أولا، ثم معرفة انعكاسات التربية الإسلامية على مستوياتها العملية. لنعرف أن - التربية الإسلامية - في قطاع التكوين الذي يشكل الرافد الأساسي لمؤسسات التنمية - مادة تذوب في كل التخصصات لتطبعها ببصمات الاستمرار الناجح والتخطيط المسؤول، وليست مادة منعزلة أو متعلقة بتخصص دون آخر.

التربية الإسلامية وتيسر المؤسسات

يحتاج تسيير المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية قبل القوانين الضابطة، إلى تكوين متين ومستمر يستوعب التغيرات، ويحتاج أيضا إلى من يتصف بأخلاق المهنة والإخلاص لها. ثم هو يحتاج ثالثا إلى تخطيط مستقبلي ورؤية بعيدة. وتأتي القوانين المنظمة خاصة الزاجرة منها لسد الثغرات ونفويت فرص الاستهتار على المتهاونين والمصلحين، ويحتاج القانون المتعارف عليه إلى جيش من الأطر يسهر على حمايته ثم إلى مجموعة أخرى تسهر على حماية ومراقبة حماة القانون، لأن المتعارف عليه في زماننا من خلال الواقع المعيش أن أهل القانون أقدر الناس على اختراقه، باعتبار الاطلاع الكبير على الحلقات المفرغة ونقط الضعف وصيغ التأويل.

وما أوتيت كثير من المؤسسات إلا من قبل سوء التدبير وخرق القوانين المنظمة نظرا لغياب الضمير المهني من جهة، ثم ضعف الرقابة البشرية من جهة ثانية. وأمام هذا الوضع لا شك أن تسيير المؤسسات في حاجة إلى رجال يتوفرون - إلى جانب ما ذكرنا - من تكوين مستمر ومتين على رقابة داخلية مكتسبة من منظومة تربية إسلامية تربطهم بأهداف أسمى من "الضمير الحي" و"الواجب الإنساني" إلى تحقيق مبدأ خلافة الله في أرضه، والإحساس بالمسؤولية أمام أصحاب الحقوق، وأمام الله الذي يعتبر رقيبا وحسيبا وشاهدا، لقول الرسول (ص): "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته" ¹ أولن يتم هذا إلا إذا كان التكوين المهني والمعرفي لا تنفصل فيه الجوانب التقنية عن التوجيهات الروحية العقائدية، وقد نستغني بهذا عن أطر الرقابة التي تحتاج إلى رقابة، وقد نستغني

¹ - سورة طه، الآية 71.

عن بروتوكولات القسم التي تتلو أي تعيين في أي منصب من المناصب الحساسة في الدولة، ولذلك لا نستغرب من كون الرسول (ص) معضدا بالوحي قضى ثلاث عشرة سنة في صقل الجانب العقائدي لدى الرجال الذين سيساهمون في بناء أول دولة إسلامية بالمدينة.

ومن هنا يظهر أن هدف التربية الإسلامية يتجلى في أمرين: طرح البديل الإسلامي في الواقع سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، ثم ترسيخ الرقابة الذاتية التي تجعل الشخص المسؤول يرقى بالمسؤولية من التشريف إلى التكليف، لأنه يعي جيدا قول الرسول (ص): "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته" ¹ "ومن هنا ندرك سر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لو عثرت بغلة بالعراق لسئلت عمر لماذا لم يعبد لها الطريق" ²، وقال حين حضرته الوفاة: "ما ندمت على شيء ندمي على تولي الخلافة" وندرك أيضا سبب عزوف أبي حنيفة عن تولي منصب القضاء، غير أنه كان من سننهم أيضا إذا رأوا أنهم أهل لتولي منصب قد يفسده من ليس أهلا له، قالوا مثل ما قال يوسف عليه السلام للعزير " اجعلني على خزانة الأرض إني حفيظ عليم" والحفظ يعني الشعور برقابة الله تعالى، والعلم يعني الكفاءة، وهما شرطان أساسيان لتسيير المؤسسات، وهذا ما توفره التربية الإسلامية.

التربية الإسلامية والتكنولوجيا

يشعر الإنسان في العالم المعاصر أنه أسير التكنولوجيا، وأن التقنية الحديثة سلبته حريته، فأصيب بهذيان وارتجاف خوفا من أن تكون عاملا مدمرا للحياة أو على الأقل عامل استعباد للضعفاء، وتهديدا لمصادر رزقهم، وتحكما في خياراتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهو ما حصل بالفعل في عالم النظام الجديد، وقبله أيام الحرب الباردة، وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمد عزيز الحبابي رحمه الله: "التكنولوجيا بحد ذاتها هي مصدر للروائح بالنسبة للإنسانية، لكن هذه الأخيرة ليست أبدا سوى وسائل مادية فاترة ذات بعد متساو من الخير والشر على الصعيد الإنساني، إن للتكنولوجيا دورا وهو الدراسة العقلانية للتقنيات، يجب أيضا إقامة انشطار واضح بين الاستعمال الحسن أو الاستعمال السيئ للتقنيات، غير أن ما يميز التكنولوجيا ظاهريا في مرحلتنا الراهنة، هو بداية قسوة تطبيقاتها: أفران حرق الجثث - هيروشيما - التمشيط المنتظم للثائرين (الثوار ضد فرنسا)، رش البلدان بالنابالم في الصبائح الهادئة، الشواهد لا تنقص أبدا، إن المنطق

¹ - رواه البخاري.

² - رواه البخاري.

ينكسر في هذه اللعبة، ويتموضع "الأنا في البداية أو في النهاية، ويصبح الكلام عبر منطق مكسور" وهاك بعض الوقائع التي تسبب الخوف والارتجاف، إنها مراجع مرقمة، مدورة وحادة جارحة بشكل مفارق:

900 مليار دولار تقريبا للتسلح، مقابل 35 مليار لمساعدة العالم الثالث، وجزء عيني من هذه المساعدات معطى على شكل سلاح أو يقدم لشراء أسلحة... كيف يمكن لمسلم أن يكون رد فعله على هذا الرجل العالمي¹؟. وبعد عرض مستفيض لمختلف المواقف المتخذة من التكنولوجيا، خلص الدكتور الفاضل إلى فكرة تصب في نفس اهتمامات العالم المعاصر، وهو ما يصطلح عليه بأخلاقيات التكنولوجيا، وما نسميه نحن توجيه التربية الإسلامية للتكنولوجيا بما يخدم قيم الإنسانية، ويحقق خلافة الله في الأرض وعمارتها، مخالفين بذلك منطق السيطرة الذي يؤدي في غالب الأحيان إلى الاستعمال السيئ للتكنولوجيا، يقول الدكتور محمد عزيز لحبابي: وبالفعل فالإسلام والتكنولوجيا... سوف يجدان وجه فائدة لكل منهما، فالآلية المنتقدة من أجل تفلتها الجنوني، سوف تأخذ وجهها إنسانيا، والإسلام سوف يجد وتبثه الجسور التي انتزعها منه التفاوت التاريخي، وسوف يعود الإيمان قوة احتجاج متيقظة.. وهكذا فإن زواج العقل والإخلاص بين العلم والتكنولوجيا من ناحية والإسلام من ناحية أخرى، يُعيد للمجتمع بعده الروحي وسوف نسترجع عندها الصفاء والسكينة الخامدتين منذ أمد².

التربية الإسلامية والإعلام

يستطيع الإعلام أن يخلق صورة سيئة عن إنسان ما، أو شعب ما، كما أن له قدرة على خلق صورة إيجابية، وإن لم تكن حقيقية عن إنسان آخر أو شعب آخر، وعن طريق سلطة الإعلام ودورها في تكييف الإطار الفكري للإنسان، نخلص إلى أن الوسائل الإعلامية تلاحق الفرد في العصر الحديث أينما كان، وبغض النظر عن مكونات العقلية المرجعية فإننا نجده مستعدا للتجاوب مع الخبر والصورة بشكل كبير، ويبقى الصدق والكذب وقواعد الإعلام مثل "الخبر مقدس والتعليق حر" تخضع للنسبية المرتبطة بأخطبوط إعلامي موجه لخدمة أهداف معينة، ليست بالضرورة في صالح المستمع بل توجيهه والتأثير عليه، وقد أضحت الارتباط متينا بين المؤسسات السياسية والإعلامية، ولم تعد الاستقلالية واردة على الإطلاق، فلن يمكن بأي حال أن تخرج توجهات محطات الإرسال التلفزيوني في الولايات

¹ - نظرة إسلامية على التكنولوجيا - محمد عزيز الحبابي، مجلة الحوار، العدد 10 السنة الثالثة.

² - نفسه

المتحدة مثلا عما تخططه المؤسسة الحاكمة في إطار النظام العالمي الجديد، وكم كان الإعلام الغربي مقدمة ممهدة لضربات عسكرية موجعة في عدة مناطق من العالم عن طريق استعداء العقلية الغربية باستعمال مصطلحات "الإرهاب" "التطرف" "الشرعية الدولية" "التدخل لحماية حقوق الإنسان" "إعادة الأمل" فيشعر الشارع الأوروبي إما بالتعاطف مع العمليات العسكرية، أو بالخوف على المصالح، ولقد أصبح المسلمون اليوم بعد فترات الانحطاط يعتمدون على وسائل الإعلام الأجنبية، في مادتهم الإخبارية التي ترتبط في كثير من الأحيان بمركزية الغرب، وفي كثير من الأحيان الأخرى بالمؤسسات الصهيونية، التي تعمل عبر شركات دعائية إعلامية ترصد لها الأموال الطائلة لصناعة أبطال مزيفين، وتهميش كل من يدور في فلك هذه المؤسسات أو يعمل ضدها: إننا نجد في الإسلام ضمانات الخبر الصادق واستقلال المؤسسة الإعلامية، نظرا لتحملها المسؤولية في تحري الدقة، انطلاقا من قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنيا فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)1 وقوله تعالى: (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)2 وقوله (ص): "من كان يومن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت".

وقد لفت نظري مقال للأستاذ محمد إدريس، من إسلام آباد صدر في مجلة العالم اللندنية يتحدث فيه عن قوانين الصحافة كما وضعها القرآن الكريم من خلال قصة النبي سليمان مع الهدهد في سورة النحل، ومن الموازين الصحفية التي ذكرها:

– احتواء الخبر على الجديد بالنسبة للسامع، وهذا واضح في قوله تعالى على لسان الهدهد: (أحطت بما لم تحط به)3.

– كون الخبر مؤكدا في قول (وجئتك من سبإ بنبا يقين) فليست الصحافة الإسلامية صحافة تزيف وتزوير.

– تحديد الزمان والمكان ووصف الحالة وهذا ما ورد في ثنايا القصة.

– الصحافة الميدانية أرقى صور الإعلام المعاصر، وهذا متوفر لأن الهدهد صحافي لم يعتمد تغطية الحدث من مكتبه وإنما زاره ميدانيا (وجئتك من سبإ بنبا يقين).

– تجرد الخبر عن أي مؤثرات وعدم استجابته لأية ضغوطات، فالهدهد نقل الخبر وانتقد الأخطاء دون أن يخشى ملكة سبإ.

إن ميدان الإعلام يحتاج إلى تربية وتكوين يضمنان تواجد أخلاق المهنة،

ويتحرر الإعلام ليصبح أداة ترشيد وتثقيف عوض أداة ضغط وتزييف، وذلك عن طريق تطعيم برامج التدريب بالتصور الإسلامي سواء في المناهج أو المواد الدراسية، لأن الواقع الحالي يتحدث عن غياب أي حس إعلامي إسلامي عند معدي البرامج عموماً، أو عن خبرة ضعيفة عند معدي البرامج الدينية خصوصاً. فلا هذا ولا ذلك نريد، إنما نريد إعلاماً متطوراً منضبطاً بالتوجهات التربوية الإسلامية وأساسيات الإعلام الحر النزيه.

التربية الإسلامية والبيئة

حينما نتحدث عن البيئة فإننا نقصد كل ما يحيط بالإنسان مما سخر الله له في الكون من مخلوقات قال تعالى: (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين) وقد تحدثت كثير من الدراسات عن البيئة وعوامل تلويثها، فتحدثت عن تلوث الماء وعن تلوث الهواء والتربة والغذاء والتلوث الضوضائي وتلوث الطبقات الجوية واستنزاف الثروات الطبيعية، وأشارت بأصابع الاتهام إلى الإنسان عبر أنشطته الصناعية التي خلفت نفايات خطيرة، وأنشطته العسكرية التي خلفت دماراً وخراباً للبيئة يبقى مفعوله عبر الحقب والأزمان، ومخزون العالم من أسلحة الدمار الشامل يكفي لتدمير الكرة الأرضية.

إن من أساسيات التنمية الحفاظ على البيئة ومقاومة التلوث، ولن يتم هذا بواسطة قوانين محلية أو دولية يصادق عليها في مؤتمرات من حجم قمة ريوديجانيرو (قمة الأرض)، وإنما يتم ذلك بواسطة التربية لأن الفرد هو الذي يفسد البيئة ويلوثها قال تعالى: (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون).

إن غياب هذا الحس التربوي الإنساني، هو الذي يجعل الغرب يصدر نفاياته إلى بلدان العالم الثالث بما في ذلك النفايات النووية المشعة، مقابل عقد صفقة مع نظام حاكم في بلد جائع وفقير ومريض. إن غياب هذا الحس هو الذي يجعل الصناعات الغربية تصب الأطنان من النفايات في عرض البحار، إن الفرق كبير بين الفكر والممارسة، وكبير بين "التخلص من النفايات" و"المحافظة على البيئة"، إن الإسلام حينما تحدث عن الطهارة الحسية والمعنوية فإنما ربط ذلك بالتصور العقائدي والعبادي، ربط الطهارة بالشعائر التعبديّة حيث لا تجوز بدونها، ولا تخلو تعليمات الإسلام في كل الميادين من إجراءات لحماية البيئة. فحينما تحدث عن الماء وهو المكون الرئيسي للبيئة ربطه بالحياة، قال تعالى: (وجعلنا من الماء كل شيء حي) لذلك نهى الرسول (ص) عن تلويثه في الحديث الذي رواه

أبو هريرة حيث قال: "لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ولا يغتسل فيه"، وبالقياس يكون النهي بهذا الحديث عن كل ما يلوث الماء.

وحيثما يتحدث عن الحروب ومخلفاتها ينهى عن حرق المزروعات وتدمير مقومات الحضارة، لأن الحرب في الإسلام استثناء من قاعدة السلام، يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه في وصيته لأسامة بن زيد قائد الجيش الإسلامي إلى الشام: "ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا بقرة ولا بعيرا إلا للأكل." وعن التصرفات العامة للإنسان في تعامله مع بيئته اعتبر الرسول (ص) أن إماطة الأذى عن الطريق صدقة، فعن أبي برزة قال قلت يا نبي الله علمني شيئا أنتفع به قال (: اعزل الأذى عن طريق المسلمين).

هذه توجيهات إسلامية أوردناها كنموذج لدعوة الإسلام إلى المحافظة على البيئة يحتاج تأصيلها إلى دراسة واسعة.

يقول الأستاذ عبد الله هلال من هيئة الطاقة الذرية في القاهرة، والواقع أن التقدم الصناعي الذي أحرزه الإنسان هو أكبر مسبب للتلوث، ذلك لأنه لم يقترن بالقيم الصالحة التي تحرم الإضرار بالبيئة واستنزاف ثرواتها... وإذا كنا نجتهد في هذه الأيام لدفع التنمية في بلادنا ومواكبة التقدم الصناعي الذي أحرزه الغرب فيجب أن نحكمنا قيما إسلامية. ويضيف: "صدرت التشريعات وتكونت المنظمات وعقدت المؤتمرات العديدة لبحث الإجراءات اللازمة للتصالح مع البيئة، ومع أن إهمال الجوانب الروحية والدينية هو أهم أسباب التدهور البيئي فمن المؤسف أن الموثيق والتوصيات التي صدرت عن مؤتمرات حماية البيئة، لم تتطرق إلى هذه العوامل المهمة، إن الرقابة الوحيدة التي يمكن أن تلازم الإنسان في كل زمان ومكان هي رقابة الضمير، والقانون الوحيد الذي نضمن له الاحترام والتطبيق هو القانون الإلهي".

التربية الإسلامية وأهداف البحث العلمي

إن الأخذ بالمنهج الإسلامي في مجالات البحث العلمي، يجب أن يقبل على أنه حقيقة منطقية وضرورة حضارية، ويكفي شاهدا على ذلك أن علوم الكون والحياة إسلامية بطبيعتها، لأن موضوع البحث فيها هي كل خلق الله في كتابه المنظور.

من هنا كانت إسلامية المنهج العلمي أو أسلمته ضرورة حضارية ملحة، لضمان مواصلة التقدم العلمي والتقني مع الحفاظ على إنسانية الإنسان، ذلك لأن الإيمان الخالص، والسمو الروحي يأتيان في مقدمة الخصائص التي يتميز بها المنهج العلمي الإسلامي، وإليهما تعزى كل القوى الدافعة لملكات البحث العلمي عن طريق الإبداع والابتكار...

لذلك بنيت فلسفة البحث العلمي من المنظور الإسلامي على نظرية التوحيد التي شكلت دافعا من حيث المنطلق وهدفا من حيث النتائج، فهي دافع من حيث أن الرسول (ص)) يقول: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له". فهذا دافع يتضمن مصلحة الإنسان وتطوير البحث العلمي، والسيطرة على الطبيعة، ليتجاوزها إلى ما هو أسمى وهو الأجر والثواب المتواصل بتواصل نفع النتائج المتوصل إليها.

وهي هدف من حيث إن (من الصفات الجديدة للمعرفة العلمية المعاصرة، أن الحواجز الظاهرية بين فروع العلم المختلفة أخذت تذوب تدريجيا لكي تحل العلوم المتداخلة والمتكاملة محل العلوم المتعددة والمنفصلة، ولقد توقع "هيزنبرج" هذه النتيجة للعلوم المعاصرة عندما ذكر في محاضرة ألقاها بجامعة ليبزك عام 1941م أن فروع العلم المختلفة قد بدأت في الانصهار في وحدة كبيرة وحول فكرة العلم الموحد).

وهذا هو هدف البحث العلمي من المنظور الإسلامي، إذ كل العلوم ووسائل البحث فيها تهدف إلى إثبات وحدانية الله وعظمته، لذلك نجد كثيرا من الآيات تحت على النظر في المخلوقات لإدراك عظمة الخالق وهو الهدف الأسمى من البحث العلمي.

وهكذا تدفع التوجيهات الإسلامية الباحث العلمي إلى تصحيح النية في البحث وتوجيهه إلى ما هو أسمى من المصلحة الظرفية، وفي هذا التصحيح دفع قوي وتجاوز للصعاب وترشيد في طبيعة توظيف النتائج لخدمة الإنسان وتحقيق الخلافة في الأرض.

الخاتمة

بعد هذه الجولة مع مختلف جوانب التنمية وبيان تأثيرها بالتوجيه التربوي الإسلامي نستنتج ما يلي:

- 1 - إن ربط التربية الإسلامية بالتنمية لا يعني إيجاد مناصب الشغل، لتوظيف طاقة الخريجين بقدر ما يرتبط ذلك بالهيكل الحضارية العامة، فكل فرد مساهم في هذه الهيكلية عليه أن يأخذ من الكفايات ما يضمن معه التوجيه السليم نحو خدمة الحضارة البشرية.
- 2 - إن خريجي الدراسات الإسلامية من المتخصصين أبعد الناس من أن تطالهم البطالة، باعتبار الحاجة الماسة في مؤسسات التربية والتكوين إلى هذا التخصص لتحقيق استراتيجية تنموية منضبطة مع السياسة العامة المرسومة للتعليم والتكوين، وفي هذا الإطار تدرج دعوة أستاذنا الجليل محمد بلبشير الحسني إلى تدريس مادة اللغة العربية

والثقافة الإسلامية في كل مؤسسات التربية والتعليم والتكوين بمختلف شعبها، وفي هذا الصدد نسجل بارتياح المرسوم الوزاري الذي يقرر هذه المادة في مختلف شعب المدارس العليا للأساتذة.

3 – إن وضعية التربية الإسلامية في المرحلة الثانوية تفتقد إلى عناصر التوجيه

والتأثير بسبب انفصال التربية عن التعليم، حيث أصبح المكلف بتدريس المادة مرييا ومدرسو باقي المواد معلمين، والمطلوب في اعتقادي ليس الرفع من عدد ساعات المادة في شكلها الحالي، وإنما تطعيم مقررات باقي المواد بما يخدم أهداف التربية الإسلامية، في إطار نظرية الوحدة والفروع، مع إقرار نظام الوحدات بخصوص العلوم التشريعية (فقه – حديث – تفسير – عقائد) مركزين من حيث المحتوى على ما يستجيب بطبيعة المرحلة التي يمر منها المتربي المتعلم.

ونحن سنرى أن في التخطيط الحالي لمادة التربية الإسلامية من الثغرات ما لا يكفي في سده إصدار الكتب المدرسية وتعيين الأساتذة المتخصصين، وإن كان ذلك لا يخلو من فائدة لأن الإشكال يكمن في المحتوى المقرر وفي قلة الحصص المخصصة للمادة.

4 – إن التربية الإسلامية فلسفة عامة توجه الفعل الحضاري الإنساني إلى التوفيق

بين متطلبات الحياة المادية والغاية العلوية، التي تتمثل في خلافة الله في الأرض بعدما أدخلت الفلسفات المادية، الإنسان في تجارب مرة وسرايب مظلمة فقد معها التوازن. تلك جملة أفكار أضعها بين يد كل المخططين والمبرمجين للتعليم، سواء داخل الوطن أو خارجه لمعرفة أوجه الربط بين التربية الإسلامية الحقبة واستراتيجية التنمية، فيقرروا من المواضيع ما يرتبط حقا بهذا المفهوم، مثل قضايا الحرب والظلم والاستعمار والاضطهاد العنصري ومشاكل الجوع والحرمان وأخطار التلوث البيئي والنفسي والعقائدي، وسوء استخدام التكنولوجيا وتناقص الموارد الغذائية والموارد الطبيعية والتحلل الأخلاقي والانفصال عن الفطرة وقضايا أخرى لا يمكن للمجتمع أن يعيش دون أن يهتم بها ويصل إلى وسائل أخرى، ثم لينظروا بعد ذلك كيف تؤثر التربية الإسلامية في قضايا التنمية عمليا.

المادة الإسلامية وآليات النهوض الحضاري
عبر الجامعة (التجارة والتسيير نموذجاً)
د.عبد السلام أقليمون
(أستاذ بالمدرسة الوطنية للتجارة والتسيير بأكادير)

تقديم :

يقود النظر الحصيف في الأسس الكبرى التي قامت عليها الأبنية المعرفية والفكرية المعاصرة، إلى ردها مجتمعة إلى أصول إسلامية. وذلك بواسطة التعاليم الكبرى التي فتحت للبشرية طريقها نحو التقدم والتطور الحضاريين، إما من طريق مباشر عندما استوحاها العقل المسلم من الوحي الرباني والهدي النبوي، أو من طريق غير مباشر عندما استوحاها

العقل الغربي في إبان نهضته من الموروث الإسلامي واكتشفها في منجزاته الميدانية، ميسورة الأخذ، دانية القطف، قابلة للاستعارة؛ لما كان المجتمع الإسلامي في ازدهاره الكبير ينفي عن نفسه كل أنانية أو انغلاق، أو استضعاف لآخر بالجهل والتجهيل، بل جعل من تعليم الآخر سبيلا إلى البر واستجابة لأمر إلهي في حسن الشهود على الناس. إن الجامعة هي المحل الأمثل لتمثيل التعاليم الإسلامية الداعية إلى القراءة باسم الله، والعمل على جعل هذه القراءة غوصا في أسرار الوجود، وفهما لسنن الأنفس والآفاق، السنن الوجودية الكونية والسنن الاجتماعية. وهذا يؤهل المجتمع المسلم لأن يكون هو الأعلى شأنًا في مختلف مناحي الحياة، والنموذج الذي ينبغي أن تحرص الأمم على الاقتداء به.

ولما كانت التجارة وطرق التسيير المعاصرة مدخلا حاسما لتدبير الشأن العام والنهوض بالاقتصاد، فإن دور المادة الإسلامية ضروري لإحياء روح التعلم الحقيقي قصد احتواء أهم المنجزات العلمية التي تفتق عنها العقل البشري المعاصر، في مجال التجارة والتسيير وعلوم الاقتصاد بوجه عام، ثم صياغتها بعد ذلك بروح إسلامية تعززها بشروط الأمانة، أو ما يسميه الاصطلاح السياسي المعاصر تخليقا للاقتصاد. وسوف نحاول في الورقة التالية أن نبين تأصيل المنظور المعرفي من خلال الآليات التي اعتمدها القرآن الكريم، والتي يعتبر تفويتها إلى القطاعات العلمية المختلفة رهانا أساسيا لكسب السبق الحضاري، بعد تقليص الفارق وتدارك المسافة مع العالم النامي.

1- اقرأ مفتاح المعرفة:

من الآيات البليغة التي ينبغي للعقل المسلم أن يقف طويلا عند دلالاتها، قصد الدراسة والتحليل واستدراك ما تنطوي عليه من هدي عظيم وتبصرة بليغة، هذه الآية الكريمة: (اقرأ باسم ربك) .

وتكمن أهمية هذه الآية في ثلاث مسائل أساسية:

أ- أوليتها التنزيلية

ب- يعقدها التوجيهية الوجدانية

ج- لتوها المعرفية

1- بالنسبة للمعطى الأول يضعنا أمام أول لقاء بين الوحي النهائي¹ وعالم الإنسانية. ورغم أن العبودية مطلب عظيم في كل الرسالات وأس العقائد جميعها، فإن الاستهلال الرسالي الخاتم احتمل بعدا معرفيا كبيرا في صيغة أمر " إقرأ ". حقيقة أقرأ الوحي وأقر في ضمير البشرية أن الله تعالى يفتح لها عهدا جديدا إلى المعرفة والعلم، وهما مفتاح الدنيا وكنز المدينة الحديثة في مختلف وجوهها، وقد أثبتت الأيام صدق ذلك وانخذل المسلمون الأواخر عن فهم ذلك الدرس .

2- إن صيغة الوجوب المكرر تفيد التأكيد على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يكون سيد البشرية إلا بالقراءة . لهذا لم يقبل منه الملك الكريم اعتذاره صلى الله عليه وسلم، فما زال يضمه ويرسله حتى تبين أهمية المقصود وخطورة المطلب. ثم تكفل الله تعالى بتعليمه وجعله أمينا على رسالة الإسلام بالعلم وحسن الخلق، كما كان لأربعين سنة خلت من عمره الكريم أمينا على أموال عشيرته وأسبابهم الدنيوية.

وليس لأحد أن يعتذر بأميته عن تلقي الوحي، فقد صار رسول الله معلما للبشرية وهاديا لها، وقارنا من كتاب الله ما تستشير به العقول، وقارنا باسم الله ما يحمي العقل والفكر والمعرفة جميعا من الزيغ والهوى والضلال .

ج - لو جاء فعل الأمر مجردا " إقرأ " لكان المطلب مطلقا، بحيث يكون المعنى كل قراءة وما اتفق منها ولكن القراءة حدد كيفها وأطلق كمها، فليقرأ الانسان ما شاء واستطاع .. ولكن ذلك لا يكون قراءة على شرط الوحي، ومطابقا لتعليم الإسلام في أول العبارات الهادية حتى يكون باسم الله :

فليست القراءة إسلامية ما لم تكن باسم الله .

(اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) (العلق 1-5).

¹ نعرف أن الإسلام هو خاتم الديانات، وقد كان الوحي دائم التوجيه للبشرية مراعيًا لأطوار نموها واستعداداتها الإدراكية (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) ... وكان الإسلام دينًا مناسبًا لآخر أطوار النضج البشري .

إن تكرار الملفوظات الدالة على المعرفة ووسائلها في حيز نصي قصير جعل الدلالة تتكاثف بقوة لتتركز في المعنى المطلوب استيعابه من الآية الكريمة، وهو ضرورة العلم والتعلم والتعليم¹.

فالعلم يبارك الإنسان ويجعله سيدا آمينا على الكون وشؤونه، بما ينسجم مع وظيفة الاستخلاف.

إن المادة الإسلامية يمكن أن تشكل سندا كبيرا لمختلف أبواب المعرفة، بل هي حقل لاستثمار العقل المسلم وحفزه على تحقيق الريادة في مختلف ميادين الحياة المتنوعة وهو يطلب بذلك أن ينسجم مع أدواره الواجبة، ومهامه المنوطة به.

2- وظيفة الهيمنة أو آلية الاحتواء والتجاوز :

من الآليات العظيمة التي ينبغي للعقل المسلم أن يستنبطها من القرآن الكريم، حتى يستفيد بها نفس السمو والعلو هي "الهيمنة" بالمعنى القرآني.

إذا اتضح لنا السبيل الذي ينبغي أن تنهجه القراءة المستهدفة العالمية، لزم أن نعرف في مستوى ثان آليات معرفية دل عليها القرآن الكريم، وينبغي على العقل المسلم أن يستعيرها بعد أن يستوعب طرق اشتغالها وتوظيفها، حتى يتمكن من بناء شأنه العلمي والمعرفي على منهاجها.

لقد ثبت لنا أن الإسلام هو خاتم الديانات، أي هو خلاصة الوحي الإلهي ومستودع كل حكمة سابقة، ونبراس جامع لكل ما تضمنته الديانات السابقة من نور، فهو منتهى الحكمة وسيد الكتب السابقة .

-يقول تعالى :

(صَحَابًا مَطَّوْرَةً مِمَّا حُبِبَ إِلَيْهِمُ) (البينة 2-3).

-ويقول أيضا (مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمننا عليه)

¹ صدر كتاب عن سلسلة عالم المعرفة يحمل هذا العنوان: "ضرورة العلم دراسات في العلم والعلماء" ل ماكس بيروترز ترجمة وائل أناسي و بسام معصراني ع 245 1999. وفيه تأكيد لأهمية العلم في تغيير الحياة الإنسانية ونقلها إلى مستويات عظيمة في الرقي والتقدم مقدما بعض النماذج من الطب والذرة والميكانيك الكمومي... وغيرها، قلت وكان العالم سيستفيد أكثر لو أن ذلك سار على هدي الإسلام الخالد، لهذا أرى أننا في حاجة إلى كتاب آخر بعد أن تنهض الأمة الإسلامية من غفوتها وتتصدر للعلم والحضارة وتكون في موقع بحيث يسمع لها ثم يكون عنوانه "ضرورة العلم والقراءة باسم الله". إذ ذلك تكون الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا والهندسة والطب والأدب والتجارة والتسيير والاقتصاد... في خدمة الإنسان وحسن إعمار الكون، عوض هذا الهدم الرهيب بوسائل متطورة/مدمرة للإنسان والبيئة، والمنظمات الحية تصرخ وتستغيث... والناس سكارى وماهم بسكارى ولكنها فتنة العلم والقراءة باسم غير الله.

أ- آلية الاحتواء

: إن الآية الأولى تخبرنا أن القرآن الكريم قد استوعب الكتب السماوية السابقة ، واحتوى ما تنطوي عليه من هدي وتبليغ ؛وهي تفيدنا أن القرآن الكريم في نهاية المطاف موند كل تشريع سابق وحكمة صادقة، بعد التنزيه من تشويش الكتبة وتحريف المحرفين.

ب- آلية التجاوز : إن القرآن الكريم وإن تضمن الكتب السماوية السابقة على صيغة التصديق المنزل والمنزه،فليس كله محض هذه بل هو مهيم عليها ومتجاوز لها ، لأن كل ما في تلك الكتب من معرفة وحكمة موجود في القرآن الكريم ،بينما يوجد في القرآن الكريم من المعارف والعلوم والحكم ما يتجاوز عقول الأوائل وخبراتهم المعرفية والاجتماعية وقدراتهم الإدراكية .ومقتضى البيان -كما نصت عليه تعاليم القرآن- أن يخاطب كل عقل بما يطبق،وكل أمة بما تفهم . لذلك كان القرآن مناسباً للعقل المسلم -وهو أعلى مراتب النضج في سلم الإدراك البشري- حتى يزوده بكل عناصر الاستخلاف على الأزمنة الحديثة والأهلية لتوجيهها والتحكم في مساراتها ¹.

وها هنا فائدة عظيمة ينبغي استحضارها :

إن عمليتي الاحتواء والتجاوز ،آلية إسلامية مفيدة للعقل المعاصر ،ينبغي الوقوف عندها قصد استيعاب ما تفتحه من آفاق معرفية ،ثم توظيفها بعد ذلك لاستدراك ذلك الدفع وبلوغ تلك الغاية،وذلك على منوال الاحتواء والهيمنة القرآنية .

ومعنى هذا أن العقل المسلم ينبغي أن يحتوي بدون إحساس بأي عقدة أو تأنيب كل ما أنجبه العقل البشري من حسنات ومعارف ². ثم يكون ذلك مضافاً إلى ما ينتجه هو الآخر ويسعى فيه،فالاحتواء والتجاوز آليتان لا تتفعان إلا مع القوة والظهور ،وليس مع الضعف والضمور .

فهذا هو المنطق الذي يرد به على الحداثوية المتهافنة وهي تزعم أن العقل العربي المسلم ينبغي أن يسير في ركاب العقل الغربي ،وعندهم أن الأخير هو النبراس ،وكل من حاد على نهجه رجعي ومتخلف...ولا ينتمي إلى المدنية الحديثة .ثم إذا ذهبت تنظر ماذا أفاد هؤلاء من أولئك لم تجد ثمة غير المنطق الذي تحدثنا عنه في صيغة مقلوبة ،أي ما

1 - الغريب أن الأمة الإسلامية في عصرنا هذا لم تفهم هذه الغاية ولا تعمل من أجلها ؟

2 - ما دام العقل هبة من الله ،ولا أحد يزعم أنه خالق عقله ،فمعنى ذلك أن كل خير أنتجه عقل فالفضل فيه لخالقه ومبدعه أولاً،ثم لصاحبه بعد ذلك فقط.ولما كان المسلمون هم المستخلفون على الأرض بحكم الشريعة فإنهم وارثوا الحسنات كيفما كان منبعها وأينما كان مصدرها .

من سيئة من سيئات الغرب إلا ويعتقها هؤلاء ويزعمون أنها المظهر الخارجي لإبراز التقدم والتطور والحدثة، وما من حسنة في الغرب إلا وهم يسكتون عنها أو ربما لأنهم لا يعرفون ضوابط التنخيل، لا يفهمون أنها حسنات.¹

أما الدعوة إلى انتحال عادات الغرب فتلك كبيرة سبق للأستاذ الكبير مصطفى صادق الرافعي أن قام بتحليلها وكشف ما تنطوي عليه من أخطار، إن لم تكن في الأصل نوايا مبيتة لهؤلاء الأذعياء:

"...وقد غفلنا عن أننا ندعو الأوروبيين إلى أنفسنا وإلى التسلط على بلادنا بانتحالنا عاداتهم الاجتماعية؛ لأنها نوع من المشاكلة بيننا وبينهم، ووجه من التقريب بين جنسين يعين على اندماج أضعفهما في أفواهما ويضيق دائرة الخلاف بينهما، ثم هو من أين اعتبرته وجدته في فائدته للأوروبيين أشبه بتليين اللقمة الصلبة تحت الأسنان القاطعة؛ وهل نسي الشرقيون أن لا حجة للغرب في استعبادهم إلا أنه يريد تمدنيهم؟"²

3- الشهود الحضاري :

(وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم

شهيذا)

إن هذه الآية تضع المسلمين أمام أدوارهم التاريخية، ومسؤولياتهم العالمية. ولو فهِمت هذه الآية حق فهمها، ولو اجتهدت الجامعات على التنقيب في أسرار ومعاني هذه الآيات لكان ذلك بمثابة وقود لانطلاق الجهود والمثابرة لتحقيق ذلك الرهان الخالد المظنون بأمة الإسلام، وهو أن تقود البشرية وتكون الحكم العالمي العادل لمختلف شعوب الأرض، لأنها بأمر الشرع الذي تخضع له لا تملك إلا مكياالا واحدا لتزن القضايا، وليس لها أن تعبت به أو تحدث معايير مزدوجة كما تفعل ذلك اليوم الأمم المحكمة في رقاب العالم .

لقد أبرز الوحي الكريم أن السموات والأراضين قامت على ميزان محكم ودقيق:

(والسمااء رفعها ووضع الميزان)

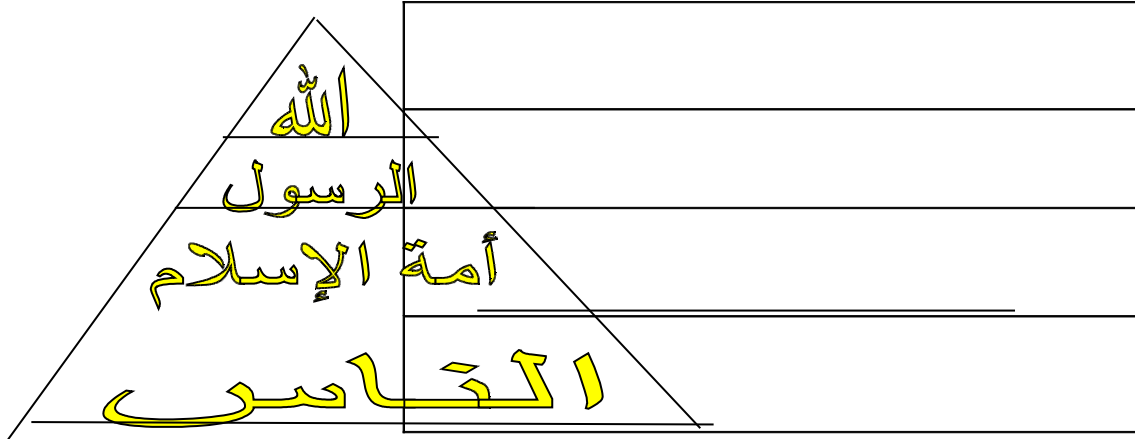
¹ - انظر مثلا إلى السكر والدعارة والجرائم والتبطل والنوادي الليلية وكثرة السهرات واستهتار النساء كيف انتشرت وأصبحت مظهرا يفاخر به هؤلاء ويزعمون أنه تمدن وحدثة... ثم ابحت عن الديموقراطية الحققة، ونظافة المدن وأصالة البناء المادي، والتساوي أمام القانون، ومحاسبة الحكام حتى أنهم لاحق لهم في كثير مما ينعم به الناس العاديون، ومكافحة البطالة، وبناء المصانع وإعداد القوة... فهل تجد شيئا من ذلك في الحياة المكشوفة التي سيطر عليها أذعياء الحدثة والعلمانية عندنا؟

² - وحي القلم ج 3 دار الكتاب العربي بيروت بدون سنة الطبع ص 175.

يثبت العلم المعاصر أن الملكوت العظيم فيما وقف عليه النظر العلمي يخضع لتدبير محكم وقوانين صارمة ،ولعل أبسط إخلال بأحد الموازين من شأنه أن ينسف نظام الكون ، فلو تقدمت الشمس قليلا أو تأخرت قليلا عن موقعها ولو أنها حادت عن فلكها شيئا قليلا لانتهت الحياة ،وكذلك بالنسبة للقمر ...وبقية الكواكب والأجرام.(ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان)

طلب من الناس تدبير شؤون الحياة بموازين صارمة ومنضبطة تسمح بتسيير الحياة الإنسانية على نحو قريب مما في السموات من نظام ،ولما كان الله تعالى تكفل بنظام القوانين الطبيعية سن لها تلك الموازين الذاتية البديعة التي قضت بها الآية الكريمة : (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) وأما القوانين الاجتماعية فقد أسند أمرها إلى الإنسان وجعله مستخلفا فيها ومسؤولا عنها ،أي سيسأل عن مهمته تلك كيف أنجزها وماذا بذل في سبيل أن تستقيم سبل الحياة الاجتماعية ،لينسجم التسيير والتدبير البشري مع مقتضيات الميزان المنصوص عليه في القرآن الكريم :العدالة والضبط والإتقان والمحافظة أو الاقتصاد وأضدادها ،الظلم والاختلال والتهاون والتضييع أو التبذير .

إن استعمال الميزان الإسلامي لقياس القضايا والظواهر والحكم عليها ،يجعل الحياة الاجتماعية تنساب بأمان وقوة يشبهان سير القوانين الطبيعية في الملكوت المحيط ، مما يجعل القانونين الاجتماعي والطبيعي يتظافران لتحقيق الغاية الكبرى وهي حسن استضافة الإنسان في هذا العالم ؛وذلك بما تمنحه القوانين الطبيعية من استنارة مادية وتسخين وتبريد وإنضاج وتوازن وجاذبية ..وما لا يحصى ،وبما تكفله القوانين الاجتماعية من إعزاز وتكريم في العيش والتعليم والسكن والتطبيب والجوار ...وغيرها . وهذه الحقوق مكفولة للناس جميعا أينما كانوا وحيثما وجدوا ،ولا يستقيم ميزان الاجتماع الإنساني حتى يستقيم هذا الشرط .وقد بين الله ذلك لنبيه وبين نبيه ذلك لأُمَّته وتبين الأُمَّة ذلك للناس جميعا .وهذا مقصود الأُمَّة الوسط أي الأُمَّة العليا في كل شيء:في العبادة والعلم والعمل والخلق والجمال ...وبذلك يكون وسط كل شيء أعلاه،فوسط الجبل والهرم قمتها .



إن هرمية المعرفة من منظور إسلامي تتبنى على الشكل الذي يبرزه المثلث أعلاه، فالله سيد الكون وبارئته وخالق كل شيء هو الأعلّم والأحكم، وبعده رسوله الأمين المسدد بالوحي، وبعده الأمة الإسلامية بعلمائها المستهدين بكتاب الله وسنة رسوله، وبعدها أمة العالمين وهي تستظل برحمة الإسلام ومعارفه. ومهما بدا من حيازة "الناس" من معارف وعلوم فإنها غير مؤهلة لأداء دور الشهادة على الناس كما هو واضح للعيان في عالمنا المعاصر، حيث الظلم المبرر بالقوة والغلبة هو السيد وليس الحكمة التي يقرها العقل وينشدها المنطق .

وعلى الأمة الإسلامية أن تستعيد وظيفتها الطبيعية في إثبات التفوق الحضاري، ولعل السبيل أمامها مفتوحة اليوم، فليس مطلوب منها أن تنهض بالجهد من أوله أو أن تعاف ما أبدعه العقل الغربي من حسنات، بل إنها مدعوة لحسن الاستيعاب والاحتواء والتجاوز ما دام ذلك سنة بديعة في إحراز التفوق كما بيناه، ولا يتناقض مع مطلب الشهادة على الناس؛ فلا يستحق أن يضطلع بتلك المهمة وينجز ذلك الدور إلا الأمة التي تجمع حسنات الأمم كلها ثم تزيد عليها هي بأخرى ليست عند أحد سواها وهو مقتضى "ومهمنا عليه" .

4-التجارة والمال أو السلطة الحديثة :

نشطت علوم الاقتصاد في العصر الحديث بقوة ملحوظة، وصارت تجذب اهتمام الباحثين والسياسيين والمسؤولين بقوة، بعد أن ثبت أن الأمة المتفوقة في مجال المال

والأعمال هي الأكثر اقتدارا على تدبير الشأن السياسي ومن ثم التحكم في المصائر وتسييرها.

والمؤسف أن الدول العربية الإسلامية هي التي أصبحت تستحق صفة الدول المتخلفة أو المنتمية إلى العالم الثالث. ومعنى ذلك أن المعطيات المندرجة في عرضنا هذا سابقا لا تجد تحققها الواقعي، بمعنى أن أمة الإسلام ليست هي الأعلى في الواقع، بل هي في الدرك الثالث من الترتيب العالمي بعد الأمم المتقدمة والتي تليها ؟
إن هذه الوضعية تحتم على المجتمعات العربية والإسلامية أن تهتم بالعلم والتعليم، خصوصا بمقتضيات التعليم الإسلامي كما شرحناه حتى تتمكن من تغطية مختلف القطاعات التنموية معرفيا وتتمكن من التحكم في مواردها، وأن تستطيع تسييرها لأنه بدون موارد وبدون تقنية عالية لا يستطيع أي اقتصاد كيفما كان نوعه أن يطمح إلى التقدم والتطور. ورغم أننا نملك الموارد الكثيرة بل والمدهشة في عالمنا العربي على الأقل إلا أنها لا تغني عنا شيئا ولا تحسن وضعيتنا العالمية، وليست في مستوى أن ترفعنا إلى مستوى الشهود الحضاري المنشود، على الأقل في المدى المنظور .

إن الجامعة العربية وكل مجالات البحث في حاجة ماسة إلى توحيد الرؤيا المستقبلية وبناء تصور محكم قادر على انتشال الأمة من وهدة الركود والضعف. ولا يمكن للبرامج التنموية وحدها أن تنجز تلك المهمة، بل تحتاج البرامج نفسها إلى منظور حضاري حاسم يمنحها مبرر الانطلاق والتحدي. ولعل حشد مؤهلات الأمة معرفيا وتحفيزها لاستعادة دورها الحقيقي في ريادة العالم - عوض التبعية والإلحاق الحضاريين - هو الذي من شأنه أن يخلق برامج تنموية لتحقيق تلك الغاية تمزج بين الإقتصادي والسياسي والثقافي والاقتصادي والاجتماعي .

إن الغرب يملك منظوره الحضاري ورؤيته الواضحة إلى العالم، وهو يعمل منذ تمكن من النهوض والقضاء على الخلافة الإسلامية على استدامة تفوقه، وبناء مؤسسات دولية تمكنه من الإشراف وتسيير العالم. وقد وجد في السيطرة الاقتصادية والتفوق التجاري والمالي أدوات فعالة لتحقيق ذلك .

إن الفكر الاقتصادي الغربي رغم تعاقب المدارس وتوالي الاجتهادات يظل محكوما بالرؤيا الميركانتيلية التي سادت أوروبا منذ القرن السادس عشر وتستهدف بالإضافة إلى دعم الاكتفاء الذاتي الوطني، تعزيز المدخرات القومية من المواد الثمينة كالذهب

والفضة .ويرى الميركانتيليون أن بلدا معينا لا يمكن أن تتفق له أسباب القوة إلا إذا استطاع أن يكتنز الثروة الهائلة من هذه المواد الثمينة ،وهو لا يستطيع ذلك إلا عندما يسوق منتوجاته للبلدان الأخرى،مما يخلق وضعية تجارية يرجح فيها ميزانه التجاري بالفائض،بينما تضطر هذه البلدان إلى محاولة ردم العجز في ميزانها بالتخلي عما في حوزتها من ذهب وفضة ومواد ثمينة يمكن أن نجعل على رأسها اليوم البترول .
ورغم تطور المناهج والنظريات الاقتصادية منذ القرن السادس عشر إلى الآن، إلا أن الروح الميركانتيلية ما تزال متحكمة في خيارات الهيمنة الاقتصادية العالمية لدى الدول المهيمنة.مما يؤهلها تبعا لأهليتها الاقتصادية والمالية من توفير المؤسسات العسكرية والبنيات التحتية التي تمكنها من استدامة التفوق ،ورعاية تخلف الدول الأخرى حتى تظل في مستوى الإلحاق الحضاري المستديم ،مستعينة بأوصياء سياسيين يكفونها التدخل المباشر وأدعياء ثقافيين يمكنونها من التوغل في وجدان الأمم المخالفة وإعدادها ثقافيا لتقبل الاحتواء الخارجي .

إن الأمة الإسلامية هي المؤهلة اليوم بعد أن تحرر نفسها بالاضطلاع بمهمة تحرير مختلف الشعوب المقهورة ،من الجهل والفقر والأوبئة... التي يسببها تخلف تصنعه أنظمة جبرية وترعاه دول استكبارية .وتكون إذ ذاك مؤثلا لحسن الشهادة على الناس .

5-المال والأعمال بين القوة والأمانة :

إذا كان التعليم أساس كل تنمية ،فإن المادة الإسلامية هي أساس تنمية التعليم نفسه

إن الجامعة المغربية يمكنها أن تنجز وظيفة تنموية عظيمة في مجال التجارة والتسيير إذا اعتمدت إجراءات عملية لترقية التكوين وتنمية القدرات وترشيد الإنتاج المعرفي وذلك من خلال العنصرين البارزين الآتيين ،وهما يلخصان مختلف الخطوات التي فصلناها أعلاه ، القوة العلمية والأمانة الخلقية .
تعتبر القوة مطلبا قرآنيا عاما ،ويمكن إسقاطه على مختلف قطاعات الحياة:السياسية والاقتصادية والاجتماعية ... وغيرها .

نتعلم من الوحي القرآني أن القوة من بين الميزات الأساسية والشروط الضرورية للنهوض بالمسؤوليات الجسيمة ؛لذلك وصف القرآن الكريم الملك جبريل عليه السلام بأنه " قوي" و "أمين" :

(ذى قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين)

هذه الصفات أهلت الملك الكريم لتحمل مسؤولية نقل رسالة الوحي إلى نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم. وهي نفسها الشروط التي أهلت مختلف الأنبياء ونبينا لتحمل مسؤولية التبليغ عن رب العالمين .

ويتضح من ذلك أن منهج القرآن الكريم يقتضي أن لا يتولى المهمات الجسيمة والمسؤوليات الخطيرة إلا كل قوي أمين .

هذا المطلب نفسه ينبغي استيعاؤه والعمل به في مجال التجارة والاقتصاد ،فقد أثبتت الوقائع في عالمنا العربي أن من بين أسباب التخلف الكبيرة هي رد المسؤوليات إلى الضعفاء والخونة .

والمقصود بالقوة في هذا السياق هو القوة العلمية في فهم مختلف النظريات الاقتصادية الحديثة ،ومناهج الاستثمار والتسويق الفعالة لترقية المنتج والإنتاج على حد سواء وضمن تسويقه .وكذلك الحرص على حسن التسيير والتدبير في مختلف المنظمات سواء كانت مؤسسات الدولة أو القطاعات الخاصة والمقاولات الحرة وغيرها ،وحيثما كان مال يستثمر أو ميزانيات تصرف .فلا بد لهذه الميزانيات والأموال من الأقوياء القادرين على المبادرة والاستعانة بالخبرات والتقنيات الحديثة وكل ما يتيح العلم من مؤهلات تقنية وفنية واستراتيجية ،ثم الأمانة القادرين على احترام الوطن والمواطنين والسهر على ما تحت أيديهم من أمانات هم وحدهم من يستطيع أن يأمر بصرفها. ونحن نعرف أن طرق التحايل على القانون وعلى الوثائق والتنسيق بين المسؤولين على الصرف: المسؤول ، المدير،المقتصد...كثيرة جدا و لا يمكن للقانون وحده -رغم أهميته ورغم كونه مؤشرا على اعتماد آلية القوة التدييرية - أن يحد من الاختلالات والاختلاسات التي تتسبب في تأخير المشاريع وإضعافها ،فالأمة التي لا تبالي بأموال المواطنين تشتغل دائما في حدود الربع من مؤهلاتها الحقيقية بينما الثلاث أرباع الباقية تشق طريقها إلى جيوب المسؤولين الذين يضيعون الأمانة ،كيفما كانت مراتبهم ودرجاتهم.

إن دور الجامعة المغربية أن تقوم بإنتاج القوة العلمية والأمانة الخلقية ،ممثلة في طلبة قادرين على أن يتحلوا بالرغبة الدائمة في المثابرة والتحصيل والوصول إلى قمة ما تعرضه سوق المعرفة من إنتاج علمي ،وأن يتمكنوا من احتواء ذلك باستيعابه وفهمه وحسن استهلاكه ثم العمل على تجاوزه والهيمنة عليه بإضافة عناصر أخرى تزيد قوة .

إن عملية الاحتواء والتجاوز هي التي ستحول الجامعة المغربية والعربية بشكل عام إلى مراكز لتحصيل المؤهلات وتعميق الخبرات ، والخروج إلى الميدان بطاقات جبارة قادرة على نقل مجتمعا خطوات إلى الأمام ، واستدراك الفارق العلمي والمعرفي -خصوصا في مجال التجارة والتسيير والاقتصاد -بيننا وبين العالم المتقدم . هذا الأخير الذي يحسن آليتي الاحتواء والتجاوز ويستفيد من نتائجها ، التي ما فتئ يجرب أهميتها. ونضرب لذلك مثلا ، عمله على جلب الأدمغة والطاقات البشرية أينما كانت ، ثم صياغتها في مشاريعه الخاصة ، مما يجعل طاقاتها تصب في منفعة ومصالحته القومية ، لكنه لا يكتفي بالاحتواء بل يتجاوز ذلك بالهيمنة ومنح تلك الإنجازات طابعا غربيا ، أي ربط الإنجازات بمحضنها الأساسي : فلا أحد يستطيع أن يسلب صفة الأوربية والغربية بعامة عن مختلف الإنجازات التي تشهدها الحياة العلمية هناك ، وذلك بالرغم من مشاركة عقول غير أوربية في إنجاز تلك المشاريع ، حتى ولو كانت نسبة نجاح المشروع إلى تلك العقول فوق الجدل .

ولكنها السنة الاجتماعية التي نبه إليها القرآن الكريم ، وهي أشبه بالسنة الكونية فكل من أحسن استثمارها سيجني ثمارها لأنها مسخرة لذلك : فنتائج الجد والمثابرة والتخطيط والمحاسبة ... غير نتائج الكسل و الخمول والعشوائية وإطلاق الأيدي في الأموال العامة لكل من تولى مهمة صرف ميزانية أو أمر بصرفها .

ولعل خلاصة القول تتمثل في الكلمة البليغة للمفكر الكبير مصطفى صادق الرافعي :
"إن التعليم في الجامعة بغير دين يعصم الشخصية هو تعليم الرذيلة تعليمها العالي".

الفهرس

- السياسة التعليمية أولاً. ذ. محمد عزيز السجاعي
الهوية الحضارية والتنمية ذ. محمد احساين
التربية الإسلامية والتنمية. ذ. محمد بولوز
آفاق المادة الإسلامية التنموية في ظل منظومة معوقة.
ذ. عبد المجيد بن مسعود.
التربية الإسلامية والبعد الاستراتيجي لقضايا التنمية.
ذ. خالد الصمدي
المادة الإسلامية وآليات النهوض الحضاري عبر الجامعة.
(التجارة والتسيير نموذجاً)
ذ. عبد السلام أقليمون.